

أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)

د. مزاحم مطر حسين

جامعة القادسية

خلاصة البحث

قد تكون دراسة التنغيم مجازفة ، وهذا ما يراه الدرس اللغوي الحديث ، ولكنها فيما أرى تظل مجازفة ممتعة وضرورية، فأما متعتها فمستمدة من أن رائدها البحث والاستكشاف فيما أحجم عنه الدارسون، وأما ضرورتها فلأن التنغيم أحد أهم عناصر السياق، ومن دونه يظل البحث عن دلالة التراكيب اللغوية المنطوقة متأرجحاً. من هنا حاول هذا البحث استقراء أثر التنغيم في علم المعاني، بوصفه أكثر العلوم البلاغية اهتماماً بأثر السياق في إنتاج المعنى اعتماداً على معرفة ملايسات النص وظروفه. وحتى تأتي النتائج على قدر من الدقة ارتأت الدراسة أن تضع أسلوب الاستفهام وأغراضه شاهداً ؛ لإيمانها أن المنهج طموح إلى الحد الذي يصعب متابعته في كل مفاصل مباحث (علم المعاني) مع إقرارها بأن ما تم التوصل إليه من نتائج يمكن أن يصدق على مساحة واسعة من علم المعاني.

مقدمة :

يرى (ماريو باي) أن هناك ثلاثة ملامح تدخل تحت دراسة الجانب (الأكوستيكي) - وهو دراسة الجانب الصوتي للكلام كما تستقبله أذن السامع، والموجات الصوتية التي تصحبه - وهذه الملامح هي: درجة الصوت وعلوه وكيفية تنغيمه^(٢).

ويرى في تعريف الجانب الثالث وهو التنغيم أنه (عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين)^(٣) ويرى أن من بين فوائد دراسة هذا الملمح أنه يعين على تمييز أصوات الأشخاص^(٤).

أما (برتيل مالبرج) فيرى أن التنغيم (تنوع في درجات الصوت)^(٥).

ويعرفه (روبنز) بقوله إنه عبارة عن (تتابعات مطردة من الدرجات الصوتية المختلفة)^(٦).

أما (دانيال جونز) فيقول: التنغيم ربما يُعرّف بأنه التغيرات التي تحدث في درجة نغمة الصوت في الكلام

التنغيم من مصطلحات الدرس اللساني الحديث يقابله مصطلح (Intonation) وهو يشير إلى التغيرات في الدرجات الصوتية التي تحدث في صوت المتكلم أثناء الحديث المتواصل، وهو ناتج طبيعي عن تذبذب الأوتار الصوتية. والتنغيم من خصائص اللغة المنطوقة إذ إنه يقتصر على التراكيب المسموعة دون التراكيب المقروءة، ويندر أن تخلو منه لغة من لغات البشر.

وبما أن المصطلح قد نُقل من لغة أخرى؛ فإن الاختلاف في ترجمته متوقع، إذ بقي متأرجحاً عند الباحثين العرب بين (موسيقى الكلام) و(النبر الموسيقي) و(النغمة الصوتية) وهي ترجمات مختلفة لمفهوم واحد^(١).

وما دام الأمر كذلك فمن الأجدى للبحث أن يستقرأ هذا المفهوم عند علماء الغرب أولاً.

في (أربع درجات للصوت: منخفض: low؛ ومتوسط mid، وعال high، وعال جداً extra high)^(١٢).

أما فيما يخص اللغة العربية فقد رأى الدكتور تمام حسان أن الأنماط التنغيمية بالنظر إلى شكل النغمة المنبورة الأخيرة - أي بالنسبة إلى نهاية النغمة وصفتها من الارتفاع والانخفاض - فإنها تنقسم على قسمين:

١- النغمة الهابطة: وهي تتصف بالهبوط في نهايتها.

٢- النغمة الصاعدة (الثابتة): وهي تتصف بالصعود في نهايتها^(١٣).

وللتنغيم بهذا الوصف المتقدم ووظائف متعددة في عملية الاتصال بين المتكلمين، يأتي في مقدمتها وظيفتان: الأولى: وظيفة نحوية، إذ يقوم التنغيم ببيان اكتمال الجمل أو عدمه، كما يقوم بوظيفة أخرى هي تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجبية، لأن من المعلوم أن لكل جملة نمط خاص من التنغيم في نهايتها^(١٤).

الثانية: وظيفة دلالية سياقية، حيث ينبئ اختلاف النغمات، وفقاً لاختلاف المواقف الاجتماعية عن وجهات النظر الشخصية من رضا وقبول وزجر وتهكم وغضب وتعجب ودهشة ودعاء... الخ، حيث يقوم التنغيم بأداء هذه المعاني بمعونة السياق العام المتعلق بالظروف والمناسبات التي يلقي فيها الكلام^(١٥).

وبذا يكون عنصر التنغيم ركناً أساسياً في الأداء يتحكم على نحو واضح في تحديد المعنى وتوجيهه، اعتماداً على كيفية نطق الجملة وتنغيمها، إذ إن (تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات)^(١٦)، إذ هو يضيف على التراكيب المنطوقة معاني إضافية لا يمكن الوصول إليها بمجرد معرفة معاني مفردات هذا التركيب أو ذاك ولا تفهم غالباً من تركيب الجملة المكتوب وإنما تكون

والحديث المتواصل، هذا الاختلاف في النغمة يحدث نتيجة لتذبذب الأوتار الصوتية^(١٧).

ويتضح جلياً من التعريفات المتقدمة أن التنغيم في مفهوم هؤلاء الباحثين يدور على وصف التغيرات الصوتية التي تطرأ على صوت المتكلم أثناء استرساله في الكلام.

ويكاد الباحثون العرب المحدثون يتفقون على وصف التنغيم بأنه اختلاف في درجات الصوت بين الارتفاع والانخفاض أثناء الكلام^(١٨)، فالدكتور كمال محمد بشر يقول في تعريفه: (هو مصطلح يدل على ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام)^(١٩).

وتظهر لدى بعض الباحثين الغرب رغبة في عدم تأطير التنغيم بقانون صارم يحدد آلية النطق وطريقته؛ لدواعٍ منطقية يأتي في مقدمتها أن لكل لغة نماذج تنغيمية خاصة تختلف عن غيرها من اللغات، فضلاً عن وجود تنوع كبير بين الأفراد في تلك الدرجات الصوتية، ولذا يرى (ماريو باي): أن (من الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحدد طريقة النطق)^(٢٠).

ولا نعدم أن نجد من الباحثين العرب المحدثين من يتفق مع هذا الرأي، ويرى أن أمثلة التنغيم في العربية تستند أساساً إما لخواص لهجية أو عادات نطقية خاصة بالأفراد ولذا يرى د. احمد مختار عمر أن محاولة تعييد التنغيم (أمر يكاد يكون مستحيلًا. وكل المحاولات التي قدمت حتى الآن لدراسة التنغيم في اللغة العربية قامت على اختبار مستوى معين من النطق، وعلى اختبار نغمات الصوت بالنسبة لفرد معين داخل هذا المستوى. ولكن التنوع بين الأفراد في هذه الناحية يحول بين الباحث وبين تعميم النتائج)^(٢١).

وعلى الرغم من ذهاب (ماريو باي) في رأيه السابق إلى تشجيع عدم وضع قانون صارم يحدد طريقة النطق؛ فإنه يذكر أن الأنماط التنغيمية في اللغة الإنجليزية تتمثل

المخاطب)^(٢٠) وهو ما تحاول هذه الدراسة الكشف عن بعض جوانبه وهو المتعلق بأثر التنغيم في توجيه المعاني البلاغية للاستفهام.

ولابد من الإشارة أولاً إلى أن التنغيم له تأثير مهم في (علم المعاني) عموماً لأنه عامل مهم في تمييز الجمل الخبرية والإنشائية، ومعلوم أن البلاغيين قد عمدوا إلى حصر كل النصوص اللغوية في إطار هذين النوعين من الجمل، فكل التراكيب الجمالية عندهم لا تخرج عن نطاق الإخبار أو الإنشاء، ثم إنهم عمدوا إلى وضع آلية معروفة للتمييز بينهما وعلى الرغم من وجود المحددات التي ذكروها؛ فإن المتأمل سيجد فرقاً واضحاً بين نوعي الجمل المتقدمة الذكر، يكمن في طريقة نطق كل جملة، إذ إن الجمل الخبرية تختلف عن الجمل الإنشائية في طبيعة تلفظ الأولى عن الثانية، لأن الجمل الخبرية تكون نبرتها العامة ميالة إلى قطعية الحدوث وإلى الصرامة في تقرير الأحداث، ولذا فهي قد تتضمن بعض المؤكدات التي تعزز للسامع وقوع ذلك الحدث، وهذا ما نلاحظه تماماً في الجمل الخبرية التي يطلق عليها (الجمل ذات الأخبار الطلبية والإنكارية).

أما الجمل الإنشائية فإن نبرتها الصوتية تميل إلى نوع من التلطف لأنها يقصد من ورائها التأثير في السامع وحمله على التزام وتنفيذ الحدث المطلوب والاستجابة له.

فثمة فارق بين تنغيم الجمل التي يراد منها تقرير الحقائق والجزم بها وهي الجمل الخبرية، وبين تلك الجمل التي يراد منها التأثير في وجدان السامع وشعوره وحمله على الاستجابة والتفاعل مع المتكلم وهي الجمل الإنشائية، كما يتضح ذلك في قول أبي الطيب المتنبي:

لا أشربُ إلى ما لم يفتُ طمَعاً

ولا أبيت على ما فات حسرانا^(٢١)

فالمتنبي يخبر عن نفسه بأنه قانع راض بحاله التي هو فيها، إذ ليس من عادته - كما يقول - أن يتطلع مستشرفاً إلى ما هو آت، وليس من دأبه أن يبيت نادماً على ما فات، ومن المتوقع هنا تماماً أن ننظر من المتنبي أن تكون نبرة الكلام عنده متسمة بنوع من الصرامة

طريقة نطق تلك التراكيب بصور تنغيمية مختلفة هي الوسيلة لفهم تلك المعاني الإضافية وهذه المعاني يقصدها المتكلم تماماً ويريد أن يضع أصبع السامع عليها؛ لأن المتكلم قد يهدف بحديثه - بصورة تنغيمية معينة - إشعار السامع معنى العتاب أو لفت النظر أو الامتعاظ أو الحث على أمر مقصود أو إظهار الرضا أو الغضب أو اليأس أو الأمل أو التأثر أو اللامبالاة أو الإعجاب^(١٧) وغيرها من المعاني التي يكون التنغيم هو صاحب اليد الطولى التي تمكننا من التعبير عنها وعن كل المشاعر والدلالات الذهنية المختلفة^(١٨)، لأن هذه المعاني جميعاً غير منصوص عليها في متن التراكيب والجمل المكتوبة، وإنما تفهم من خلال السياق الذي يحيط بالتراكيب، وطريقة نطق المتكلم وأدائه الصوتي جزء حيوي من السياق، لأن (السياق في الاستعمال الشفوي للغة لا ينحصر في الكلام السابق واللاحق بل يشمل التنغيم والإشارات والموقف نفسه)^(١٩).

ويظهر مما تقدم جوهر العلاقة بين (علم المعاني) البلاغي و(التنغيم) لأنهما معنيان بإظهار المعاني الإضافية التي لا تكون مذكورة في بنية الكلام الأصلية وإنما تفهم ضمناً بمعونة السياق والقرائن المحيطة بالمنطوق؛ إذ إن الكلام كثيراً ما يتضمن معاني يُرشد إليها سياق الحال الذي قيل فيه.

ولا يبدو الأمر مقتصرًا على ذلك وإنما يتعدى أثر التنغيم إلى مفاصل دقيقة في (مباحث علم المعاني) إذ إنه يقف مع بعض العناصر الأخرى وراء جملة من الأمور المتحكمة في تبويب هذا العلم وتقسيمه وهذا ما دعا أحد الباحثين إلى القول (إن حضور التنغيم في الدرس البلاغي يشكل ملمحاً أساسياً ومهماً بل يسير جنباً إلى جنب مع علم المعاني في تحديد أطره وتمييز تراكيب جملة للوصول بها إلى أمن اللبس الذي قد يعتريها، أو للمساهمة في تحديد تنوع الجملة التي تؤدي بأكثر من لون موسيقي للدلالة على المعاني البلاغية التي تتضمنها وفق ما يتطلبه حال

وما من فيصل بين المعنيين سوى وجود التنغيم واختلاف رفع الصوت وخفضه فيهما، وكل ما عدا التنغيم يبقى في المثال الآنف الذكر على حاله، من ترتيب الكلمات في الجملة وحركات الإعراب والبناء، وكل هذه الأمور الباقية على حالها لا تصلح أساساً للتفريق بين الإثبات والاستفهام، بيد أن التنغيم هو ناحية الخلاف الوحيدة بينهما^(٢٤).

بل إن التنغيم قد يكون في بعض النصوص أهم من وجود الأداة لأن هناك العديد من النماذج التي أحوت على أدوات الاستفهام وهي في الوقت نفسه لم تحكم على تلك النصوص بأنها استفهامية^(٢٥) ومنها: قوله تعالى: ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً))^(٢٦) لأن حرف الاستفهام (هل) لا يشير إلى الاستفهام هنا ودلالة التنغيم تقتضي أن يكون معنى الآية تقريراً، ويكون الحرف (هل) بمعنى (قد) وهذا ما أكده جمع من الباحثين القدامى الذين وقفوا على هذا النص^(٢٧).

وقد تكون أداة الاستفهام موجودة ولكن معنى الجملة يظل متأرجحاً بين الاستفهام والتقرير حتى يأتي التنغيم فيكون فيصلاً حاكماً بين المعنيين كما يتضح ذلك في الجمل الاستفهامية التي استعملت فيها الأداة (كم) كقول الفرزدق:

كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرٌ وَخَالَةٌ

فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عِشَارِي

فقد ذهب البلاغيون إلى أن معنى البيت يحتمل الاستفهام ويحتمل الإخبار^(٢٨)، والذي يحدد ذلك هو الطريقة التي يتم بها أداء التنغيم الصوتي، فإذا استعملت النغمة المرتفعة في نطق البيت دل ذلك على أن المراد معنى الاستفهام فكان الشاعر يطلب العلم بما جهله الشاعر ويعلمه السامع من عدد العمات والخالات اللاتي هذا شأنهن مع الشاعر أما إذا استعملت نغمة صوتية مستوية كان مراد الشاعر الإخبار والتقرير فكان الشاعر بذلك يخبر بما يعلمه هو ويجهله السامع عن عددهن وهو عدد كثير بحسب زعم الشاعر.

وبدل ما تقدم أن التنغيم أهم العناصر^(٢٩) التي تميز الجمل الاستفهامية من تلك الإثباتية، والأمثلة متعددة على

والكبرياء والترفع وهو يصف نفسه بهذه الأوصاف المتقدمة، على العكس من نبرته الصوتية في البيت الآتي:

فَلَيْتَ هَوَى الْأَحْبَةَ كَانَ عَدْلًا

فَحَمَلْ كُلَّ قَلْبٍ مَا أَطَاقَا^(٢٢)

إذ نكاد نسمع تنغيماً موسيقياً أميل ما يكون إلى التحنن والتلطف وهو يحاول جعل سامعه يستشعر هذه الأمنية التي أحرقت فؤاد الشاعر لأن الهوى حملته مالا يطيقه جوراً عليه.

فقد كان التنغيم حاضراً في نوعي الجمل إذن، نغمة الصرامة المرتفعة في النص الأول لأنه يخبر عن صفات يعتد بها في نفسه، ونغمة التلطف في الطلب لأنه ينتظر من سامعه أن يتفاعل معه شعورياً ووجدانياً.

وتغير التنغيم في الجمل المتقدمة يستبطن ويتطلب تغيراً في الحالة النفسية والانفعالية للمتكلم، لأن من غير المنطقي أن تكون الحالة الانفعالية للمتكلم في الحالين واحدة، وكيف يمكن أن تكون حال الإنسان وهو يقرر الحقائق والوقائع كحاله وهو يريد أن يؤثر ويستجلب اهتمام السامعين؟! لا يمكن أن يكون الأمر في الحالين واحد. وهذا يقودنا إلى الإقرار بأثر التنغيم في تصنيف الجمل إلى خبرية وإنشائية. وهذا ما لم ينص عليه أحد من البلاغيين فيما أحسب مع وضوحه كما تقدم.

أثر التنغيم في توجيه معاني الاستفهام:

سبق القول إن التنغيم يقوم بوظيفة نحوية هي تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجبية، وفي مبحث الاستفهام يكتسب التنغيم أهمية خاصة؛ إذ يصبح الدليل الوحيد في تمييز الجمل الإثباتية عن الاستفهامية في الجمل التي لم تستعمل فيها أداة الاستفهام^(٢٣).

فجملة: أنت محمد. تحتمل أن تكون جملة استفهامية قد حذفت منها أداة الاستفهام (الهمزة) وعوض عنها بالتنغيم الصوتي الذي يدل على هذه الأداة المحذوفة. وتحتمل أن تكون جملة إثباتية تقريرية تريد الإخبار بهذه الحقيقة فقط.

الجدير بالذكر هنا أن البلاغيين قد تتبعوا الأغراض المجازية للاستفهام فوجدوا أنها تزيد على ثلاثين غرضاً بلاغياً^(٣٣). وبدا من خلال الاستقصاء والتتبع أن نصيب التنغيم الصاعد في نهايته كان تسعة عشر غرضاً، أما التنغيم الهابط في نهايته فقد تمثل في خمسة عشر غرضاً منها:

فقد أطر التنغيم الصاعد خروج الاستفهام إلى معنى الاستبعاد والافتخار، والأمر، والتأكيد والتبكيث، والتحذير، والتحضيض، والتذكير، والتشويق، والتعجب، والتعظيم، والتفخيم، والتقرير، والتنبيه، والتهديد، والتهويل، والنفي، والنهي، والوعيد.

في حين كانت النغمة الهابطة تصحب خروج الاستفهام إلى معنى الاستبطاء، والاسترشاد، والاكتفاء، والإتكار، والإيأس، والإيناس، والتجاهل، والتحقير، والتفجع، والتكثير، والتمني، والتهمك، والتوبيخ، والدعاء، والعتاب.

وذلك طبقاً للنماذج والنصوص التي تم استقراؤها وتتبع أنماط التنغيم فيها، كما سيتضح من خلال الفقرتين القادمتين.

١- التنغيم الصاعد في أغراض الاستفهام:

يلاحظ على مجموعة المعاني الاستفهامية ذات التنغيم الصوتي الصاعد؛ أنها من قبيل المعاني التي يحتاج فيها المتكلم إلى إظهار الثقة والاستعلاء والتأكد مما يقول؛ لأنها في الأغلب تدفع السامع باتجاه الحدث المطلوب وتحمله عليه بنوع من التحضيض والتشويق الممزوج بشيء من الرغبة والشدة والصرامة، ولذا كان من الملائم تماماً لهذه المعاني أن تتأطر بالتنغيم الصوتي الصاعد في نهايته لأنه يعين مجريات السياق على تحقيق هذه المعاني المطلوبة، ويوفر لها الجو المناسب الذي يجعل المخاطب مستجيباً ومتفاعلاً مع هذه النغمة الصاعدة. كما نلاحظ ذلك في استفهام التعجب في قوله تعالى: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ))^(٣٤).

احتمال استفهامية الجملة - مع خلوها تماماً من أدوات الاستفهام - اتكاءً على التنغيم الصوتي الذي تميزه الأذن الخبيرة ويدركه الذوق السليم ومن هذه الأمثلة:

قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً

عدد الرمل والحصى والتراب^(٣٥)

فقوله (تحبها) يحتمل أن يكون استفهاماً بهمزة استفهام محذوفة أي (أ تحبها؟) فتكون الجملة بحاجة إلى إجابة الشاعر التي تصدرت بقوله (قلت جهراً) ويحتمل أن تكون جملة (تحبها) إخبارية^(٣٦) فيكون معنى الجملة أن الناس قد لاحظوا محبة الشاعر وأرادوا أن يخبروه بذلك فجاء كلام الشاعر تأكيداً لملاحظتهم تلك، والمعنى كما ترى مختلف في الحالين، ومع وجود عنصر التنغيم ينتفي هذا التأرجح بين الاحتمالين، إذ هو الفيصل بين المعنيين.

ومثله قول الكميت:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب^(٣٧)

إذ يظل البحث عن دلالة قوله (ذو الشيب يلعب) قلماً؛ يتراوح بين الاستفهام الإنكاري بهمزة استفهام محذوفة، واحتمال أن يكون التركيب دالاً على الإخبار، فعلى الاحتمال الأول يكون المعنى أن الشاعر يستنكر على صاحب الشيب قيامه باللعب، أما على الاحتمال الثاني فإن الشاعر يرى أن من المتوقع من الإنسان الذي بلغ من الكبر عتياً أن يعبت ويلعب فقد وصل إلى سن لا يستغرب منه ذلك، وبين هذين المعنيين يبقى التركيب متأرجحاً، إذ لا تكفي معرفة معاني مفرداته، وبنية مكوناته والعلاقات بينها للوصول إلى دلالة يطمئن إليها المتلقي حتى يأتي التنغيم ابتداءً من قوله (وذو الشيب يلعب) ليكون مكملاً لكل جوانب الكشف عن المعنى فإذا كانت النغمة صاعدة كان الاستفهام ولا شيء غيره، أما إذا كانت نغمة التركيب مستوية فهي الإخبار من غير عجب.

ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب وإنما يتعداه إلى كون التنغيم فيصلاً مهماً يقف إلى جانب عناصر السياق والمقام ليميز الأغراض المختلفة للجملة الاستفهامية ومن

لأنه استفهام أريد منه الإشارة إلى قلة وجود الأحرار الذين يحفظون حق اليد التي تُسدى إليهم فهو يستبعد كثرتهم، ولا يمكن أن نتصور نغمة الاستفهام هنا إلا نغمة صاعدة مرتفعة، وهي تبحث عن جواب لسؤال مفاده: من أين لنا بالأحرار الذين يُقدرون قيمة المعروف؟ ونتوقع أن يكون الرد: هم قلة.

ونجد حضوراً مميزاً للنغمة الصاعدة في نهاية جمل الاستفهام التي أريد منها معنى الأمر كما في قوله تعالى: ((فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ))^(٤١) إذ إن دلالة الأمرية واضحة في هذين النصين، ونغمة السؤال صاعدة تدعو السامع بصوت ممدود إلى الإذعان والتسليم والانتهاه امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى والتقدير (أسلموا وانتهوا).

كما نجد نغماً مرتفعاً صاعداً في الاستفهام الذي أريد منه معنى التشويق كما في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ))^(٤٢). فقد جاء الاستفهام هنا ليحقق التشويق لدى المخاطب ويستجلب كل اهتمامه حتى يرغبه ويستميله إلى المسارعة إلى اغتنام هذه التجارة المنجية من العذاب الأليم بتنغيم صوتي صاعد ليحقق للسامع ذلك الاطمئنان الواثق بصدق الوعد، فهي تجارة منجية بلا أدنى شك، وكان هذه النغمة الصاعدة عبر هذا الاستفهام تظل منتظرة لذلك الجواب من السامعين وهم يسارعون بالقول. نعم نحن نريد أن تدلنا على هذه التجارة. ومن المتوقع حضور التنغيم الصاعد في نهاية الجمل الاستفهامية التي أريد منها إحضار معنى الوعيد والتهديد، لأن هذا الغرض يتطلب إظهار الشدة والحزم والجد وهذا ما يتلاءم مع النغمة المرتفعة كما في قولك لمن تريد تهديده وتضرب له مثلاً بتأديبك لغيره حتى يتعظ: ألم أؤدب فلاناً؟ تريد بذلك تهديد السامع وتوعده حتى يقلع عن إساءته، ولعلنا نكاد نسمع تنغيماً مرتفعاً صاعداً في نهاية هذه الجملة لتدلنا على ما يستنبطه ذلك الاستفهام من التهديد والوعيد حتى يتجنب السامع تلك العقوبة التي أصابت ذلك المذكور.

فالاستفهام في الآية جاء لمعنى التعجب^(٣٥)، والمناسب لهذا المعنى هنا أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صاعدة لتؤدي إلى إيصال معنى التعجب من هؤلاء الذين يكفرون بالله مع ما يلاحظون من الإماتة والإحياء في الأشياء وفي أنفسهم فكان تقدير المعنى (عجباً منكم على أي حال يقع منكم الكفر بالله مع الدلائل الظاهرة على وحدانيته والمعجزات القاهرة على صدق من اختصه برسالته وقيام الحجج الباهرة على وجوب طاعته وشكر نعمته)^(٣٦) وتبدو النغمة الصاعدة واضحة تماماً في استفهام التعجب في قول أبي الطيب المتنبي متعجباً من الممدوح وقد صرع أسداً:

أَمْعَرُ اللَّيْلِ الْهَزِيرَ بِسَوْطِهِ

لَمَنْ ادْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا؟^(٣٧)

فالشاعر هنا يسأل متعجباً من فعل هذا الممدوح الذي تمكن من صرع الأسد - وهو أشد الحيوانات بأساً - بسوطه؛ قائلاً لأي الأمور ادخرت سيفك المصقول إذن؟ ومن الطبيعي أن تكون نغمة التعجب هنا نغمة مرتفعة صاعدة يرتقي فيها الصوت ليعبر عن امتلاء النفس عجباً من هذا الصنيع، وكأنه ينتظر من السامع أن يجيب على جملة (لمن ادخرت الصارم المصقولا؟) - ذات النغمة الصاعدة المرتفعة - بالقول: لأمر أعظم من صرع الأسد أكيداً.

ومعنى الاستبعاد من أغراض الاستفهام المجازية التي تتطلب وجود نغمة مرتفعة تتساق مع جعل الأمر مستبعداً فكان ارتفاع النغمة وامتدادها يعبر عن استبعاد حصول ذلك الشيء المذكور، كما نلاحظ ذلك في الآية الكريمة التي استبعدت حصول (الذكرى) لقوم لم يسمعوا لرسولهم المبين ((أَنَّى لَهُمُ الذُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ))^(٣٨).

كما تظهر نغمة الاستبعاد الصاعدة في قول أبي الطيب المتنبي:

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ

وَمَنْ لَكَ بِالْحَرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا؟^(٣٩)

وأى قلوب هذا الركب شاقاً؟^(٤٦)

فالشاعر هنا يتمنى لو أن الربع يدري ما فعل من أراقه دمه وما هيجه في قلبه من الشوق، والأنسب لهذه المعاني أن تكون نغمة الاستفهام متسمة بالهبوط لتدل على هذه المعاني مشوبة بنوع من التمني والتألم معاً.

والتنغيم الهابط يلائم غرض الاستبطاء تماماً، إذ إن هذا الغرض يخفي نوعاً من الحزن والأسى على تأخر مجيء المطلوب مع اندفاع تام من المتكلم ورغبة صادقة في حصوله على وجه السرعة، فالمتكلم يستبطئ ويتحسر لهذا الاستبطاء ولا بد أن هكذا معاني تتلاءم مع التنغيم الهابط، كما نلاحظ ذلك في استبطاء المؤمنين مجيء النصر بعد أن زلزلوا ومستهم البأساء والضراء: ((مَتَى نَصْرُ اللَّهِ))^(٤٧) بصوت يظهر الاستبطاء ويستبطن حزناً عميقاً وعتباً مشفقاً.

ومثله في خروج الاستفهام إلى معنى الاستبطاء قول

المتنبي:

حَتَامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلْمِ؟

وما سُرَاهُ عَلَى خَفِّ وَلَا قَدَمٍ^(٤٨)

فالمتنبي هنا لا يسأل عن الزمان، ولكنه يستبطئ مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته، ومجيء البيت بالتنغيم المستوي الذي يهبط شيئاً فشيئاً يساعد تماماً على إظهار هذا الغرض، ويشعر تماماً يتضجر المتنبي من مسابرة النجم الذي لا يتعب لأنه لا يقطع المسافات على خف ولا قدم، فمن أين يأتيه الكلال الذي يصب الإبل والإنسان؟ وهذا يضيف بعداً جديداً لمسألة الاستبطاء فرقيق الدرب - النجم - على خلاف الرفاق لا يعاني التعب والوصب، أما المتنبي ورحاله فقد أصابهم الكثير من المعاناة فمتى يصل إلى مطلوبه؟ ولا يخفى ما في هذا البيت من نبرة حزينة متألمة يناسبها مجيء النغمة الهابطة تماماً.

ونجد النغمة المشوية الهابطة في خروج الاستفهام

إلى معنى الإنكار، كما في قول المتنبي في المديح:

أَتَلْتَمِسُ الأَعْدَاءُ بَعْدَ الذي رَأَتْ

قيام دليل أو وضوح بيان؟^(٤٩)

وغرض التعظيم من الأغراض التي يناسبها ذلك التنغيم الصاعد حتى يؤدي معنى الإشعار بعظمة ذلك الأمر كما في قول الشاعر:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريمة وسداد ثغر^(٤٣)

فلكي نتصور عظمة الشيء المضاع لابد أن نسمع التنغيم المرتفع في جملة (وأي فتى أضاعوا) لنعرف أن قوم الشاعر قد أضاعوا فارساً لا يعوض، يكفي في المهمات ويدفع في الخطوب.

وعلى هذا النسق من التنغيم الصاعد تمضي بقية أغراض الاستفهام التي تتطلب حضور هذا التنغيم حتى يكمل جوانب الكشف عن المعاني التي أريدت من ذلك الاستفهام.

٢- التنغيم الهابط في أغراض الاستفهام:

تقف بالمقابل من هذه الأغراض المتقدمة، أغراض

أخرى تتميز بنوع من تألم المتكلم وتأسفه وتستبطن نوعاً من العتاب في طياتها، ولذا كان التنغيم المتسم بالهبوط في نهاية هذه الأغراض هو المعلم الواضح الذي يميز تلك الأغراض ويؤديها أكمل أداء، كما نلاحظ ذلك في خروج الاستفهام إلى غرض العتاب في قوله تعالى في معاتبة خير خلقه (صلى الله عليه وآله): ((عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ))^(٤٤) إذ إننا نكاد نسمع ذلك التنغيم الهابط الذي عبّر به عن لطف معاتبة فهي معاتبة المحبوب للمحبيب والتي لا يمكن أن نتصورها إلا بذلك التنغيم الهادئ المتعاطف.

كما نجد هذا التنغيم الهابط في خروج الاستفهام إلى

معنى التمني، إذ إن طلب ما لا يدرك لابد أن يكون بتلك النغمة الحزينة التي كلت عن رفع الصوت واستكانت عليها تنال بعض ما تتمنى فنجد تلك النغمة في قوله تعالى على لسان بعض المعرضين عن الحق وهم ينالون الجزاء المحتوم ((فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ))^(٤٥) وقد استوثقوا أنهم يطلبون ما لا يحق لهم فكانت نغمة الطلب هابطة وادعة.

ومثلها ما ورد من غرض التمني أيضاً في قول أبي

الطيب المتنبي:

أيدري الرِّبِّعُ أي دم أراقاً؟

أقدمت حتى جعلتني عرضةً للضرب بفعل الهزيمة ولعل من الواضح أن هكذا صور تحتاج إلى هدوء نغمي يميل إلى الهبوط ليثبّع الحاضرين ضحكاً عليها وكلما بالغ المتكلم إلى إخفاض صوته كلما علت الأصوات المقابلة ضحكاً على هذه الصور المتهكمة.

وعلى هذا النحو تتلون بقية أغراض الاستفهام الهابط ليوقف التنغيم فيها جنباً إلى جنب مع بقية عناصر السياق ليملاً مساحة المعنى التي كانت ستظل فارغة من دون هذا العناصر مجتمعة، ولأن هذا المنهج في استقراء النصوص طموح إلى الحدّ الذي يصعب إجماله - شأنه في ذلك شأن أي منهج يعتمد السياق في مجرياته - فقد اقتصرت الدراسة على استقراء نصوص الاستفهام لتكون شاهداً على أثر التنغيم في توجيه المعاني البلاغية لعلم المعاني، مع إيمان الدراسة بأن ما تم التوصل إليه من نتائج ينسحب على مساحة واسعة من (علم المعاني) البلاغي انطلاقاً من مقولة (ستيفن اولمان) بأن (المنهج السياقي طموح إلى درجة لا يستطيع معها في كثير من الأحيان إلا تحقيق جانب واحد فقط، ولكنه مع ذلك يمدنا بمعايير تمكنا من الحكم على النتائج حكماً صحيحاً)^(٥١).

الهوامش:

- (١) ينظر: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ٢٦٣.
- (٢) ينظر: أسس علم اللغة: ٩٢.
- (٣) م. ن: ٩٣.
- (٤) ينظر: م. ن: ٩٢.
- (٥) الصوتيات: ١٥١.
- (٦) التنغيم في التراث العربي: ٣، وينظر: معجم المصطلحات اللغوية والأدبية: ٧٥.
- (٧) An out Line of English phonetics, P. 275.
- نقلاً عن التنغيم في التراث العربي: ٣.
- (٨) ظاهرة التنغيم في العربية: ١٥٣.
- (٩) علم اللغة - القسم الثاني - الأصوات: ١٦٣. وينظر: مناهج البحث في اللغة: ١٩٨، وينظر: في البحث الصوتي عند العرب: ٦٣.
- (١٠) أسس علم اللغة: ٩٥.
- (١١) دراسة الصوت اللغوي: ٣١٥.

فالشاعر ينكر على الأعداء ارتياهم في الممدوح وتتطلبهم الأدلة والبراهين، وقد رأوا بأعينهم كيف نصره الله في المواقف، والشاعر هنا يحاول أن يكون هادئاً في عرضه أفضلية الممدوح زاعماً أن هذا الأمر من الوضوح بمكان ولا يحتاج إلى أدلة أو براهين، لأنه أمر تراه العين ولا يُنكره العاقل ومجيء النغمة المستوية الهادئة التي تميل إلى الهبوط يساعد كثيراً على إضفاء هذا الهدوء المطلوب أمام الخصوم حتى يوحي بتمام الثقة أن ما يقوله في الممدوح من الأمور الواضحات. وخروج الاستفهام إلى غرض التوبيخ تلائمه النغمة التي تميل إلى الهبوط تماماً كما نلاحظه في قول امرئ القيس:

أغرّك مني أن حبك قاتلي

وأنتك مهما تأمري القلب يفعل؟^(٥٠)

فالشاعر يريد من المحبوبة أن لا يغرّها هذا الحب اللامتناهي الذي أصبح مسيطراً على القلب فيأتمر بأمرها مهما أشارت، فهو لا ينتظر منها أن تستبد بهذا الأمر، ويرى أن هذا الذي حصل ما كان ينبغي أن يقع، ولاشك أن هذا يستبطن معنى التوبيخ على ما حصل، ولكنه لوم الحبيب للحبيب، وعتاب المحب للمحب، فلا ينتظر منه إلا أن يكون بنغمة العتاب الهادئة الهابطة التي تحاول أن تلوم المحبوب وتستبقي عليه معاً، فهي نغمة مستوية في مجملها تجنح إلى الهبوط في نهايتها.

وغرض التهكم من أغراض الاستفهام التي يساعد التنغيم الهابط على إظهارها، لما في هذا الغرض من رغبة عند المتكلم في إظهار الصور الساخرة التي يلائمها تلك النغمة الصوتية الهادئة الهابطة التي تريد أن تضحك الآخرين بتمام الهدوء والسكينة لتستجلب تمام الانتباه والسخرية على المتكلم منه كما في قول المتنبي مستفهماً متهمكاً من (الدُّمستق).

أفي كلِّ يومٍ ذا الدُّمستقُّ مُقدِّمٌ

فقاه على الإقدام للوجه لائم^(٥١)

فهو يرسم صورة (كاريكاتورية) تصور فرار الدمستق في كل مرة ثم يلوم فقاه وجهه على أقدامه قائلاً لم

- (٤١) المائدة: ٩١، وينظر: معترك الأقران: ٤٣٦/١،
والإتقان: ٨٠/٢.
(٤٢) الصف: ١٠.
(٤٣) ديوان العرجي: ٣٤.
(٤٤) التوبة: ٤٣.
(٤٥) الأعراف: ٥٣.
(٤٦) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٤٢٤.
(٤٧) البقرة: ٢١٤، وينظر: معترك الأقران: ٤٣٧/١،
والإتقان: ٨٠/٢.
(٤٨) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٧١٨.
(٤٩) م. ن: ٦٧٢.
(٥٠) شرح المعلقات العشر: ٨٠.
(٥١) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٥٥٤.
(٥٢) دور الكلمة في اللغة: ٦١.
- المصادر والمراجع**
- ١- القرآن الكريم
٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي،
القاهرة، ١٣٦٨هـ.
٣- أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد مختار
عمر، عالم الكتب، ط٨، مصر - القاهرة، ١٤١٩هـ -
١٩٨٨م.
٤- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مطبعة لجنة البيان
العربي، مصر - القاهرة، ط٣، ١٩٦١م.
٥- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه،
مكتبة الزهراء، القاهرة.
٦- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح: د.
عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، ط٢،
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٧- التنعيم في التراث العربي، د. عليان بن محمد الحازمي،
مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، جامعة أم
القرى، العدد ٥ كانون الثاني، ٢٠٠٧م.
٨- التنعيم ودلالاته في العربية، يوسف عبد الله الجوارنة،
مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد ٣٦٩ كانون الثاني،
٢٠٠٢م.
٩- دراسات في علم اللغة، د. كمال بشر، دار المعارف،
القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

- (١٢) أسس علم اللغة: ٩٤.
(١٣) ينظر: مناهج البحث في اللغة: ١٩٨-١٩٩، وينظر:
علم الأصوات: ٥٣٤-٥٣٧.
(١٤) ينظر: علم الأصوات: ٥٤٣-٥٤٤.
(١٥) ينظر: م. ن: ٥٣٩-٥٤٠.
(١٦) دلالة الألفاظ: ٤٧.
(١٧) ينظر: التنعيم في التراث العربي: ٧، وينظر: الدلالة
اللغوية عند العرب: ١٧٨ نقلا عن: التنعيم ودلالاته في
العربية: ٥.
(١٨) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ١٩٥، وينظر: في
البحث الصوتي عند العرب: ٦٣.
(١٩) اللغة والإبداع: ١٢٧.
(٢٠) ظاهرة التنعيم في العربية: ١٥٩.
(٢١) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٢٧٣.
(٢٢) م. ن: ٤٢٤.
(٢٣) ينظر: دراسات في علم اللغة، القسم الثاني: ٢٥-٢٦.
(٢٤) ينظر: مناهج البحث في اللغة: ١٩٨.
(٢٥) ينظر: علم اللغة العام - الأصوات -، ١٨٩، وينظر:
علم الأصوات: ٥٤٤.
(٢٦) الإنسان: ١.
(٢٧) ينظر: معاني القرآن، للفراء: ٢١٣/٣، وينظر: إعراب
ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ٦٤، وينظر: همع
الهوامع: ٥٠٧/٢.
(٢٨) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٣٣.
(٢٩) ينظر: علم اللغة العام - الأصوات -، ١٨٩.
(٣٠) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٢٣١.
(٣١) ينظر: مغني اللبيب: ١٥/١.
(٣٢) الروضة المختارة - شرح القصائد الهاشميات: ٢٥.
(٣٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:
١٨١/١-١٩٤.
(٣٤) البقرة: ٢٨.
(٣٥) ينظر: معترك الأقران: ٤٣٥/١، والإتقان: ٨٠/٢.
(٣٦) مجمع البيان: ٧٠/١.
(٣٧) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٧١٨.
(٣٨) الدخان: ١٣، وينظر: معترك الأقران: ٤٣٨/١.
(٣٩) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي: ٧١٨.
(٤٠) هود: ١٤.

- ٢٧- معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، تحقيق: عبد الفتاح شلبي، دار السرور، (د.ت).
- ٢٨- معترك الإقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٢٩- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧م.
- ٣٠- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، عليّة عياد، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٣١- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.
- ٣٢- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.
- ٣٣- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

The Effect of Intonation in Directing the Rhetorical

Uses of the Art of "AL- Ma'ani"

The study of intonation is a great challenge to any scholar and is often considered a risk by many modern linguists, but it is definitely a thrilling risk. The subject of intonation remained untouched for a long time because few ventured into such slippery area. It is however an integral part of any linguistic investigation and without which structured and semantic analyses remain defective. The present study is an attempt to explore the effect of intonation in the art of "AL- Ma'ani" since it is the rhetorical art which lays the heaviest emphasis on context as the major decisive factor in producing the meaning. The interrogative form (question) is employed as an example since a thorough investigation of the whole area of "AL- Man'ni" art is legend the scope of this studs.

- ١٠- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، مصر - القاهرة، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ١١- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٣.
- ١٢- الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء، عمان، د.ت.
- ١٣- دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان، ترجمة: د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، المنيرة، ١٩٧٥م.
- ١٤- ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح الواحدي، تح: فريدخ ديتريصي، برلين، ١٨٦١م.
- ١٥- ديوان العرجي، تحقيق: خضر الطائي ورشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد.
- ١٦- الروضة المختارة- شرح القصائد الهاشميات، مؤسسة النعمان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٩.
- ١٧- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٨.
- ١٨- ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الأندلس، بيروت، (د.ت).
- ١٩- الصوتيات، برتيل مالبرج، تعريب ودراسة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، (د.ت).
- ٢٠- ظاهرة التنغيم في العربية، آلاء حسين داود الشرع، ودريد عبد الجليل الشاروط، بحث منشور في مجلة القادسية المجلد ٣، العدد (١)، ٢٠٠٤م.
- ٢١- علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة - مصر، ٢٠٠٠م.
- ٢٢- علم اللغة العام - القسم الثاني- الأصوات، د. كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥م.
- ٢٣- في البحث الصوتي عند العرب، منشورات الجاحظ، سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد، ١٩٨٣م.
- ٢٤- اللغة والإبداع- مبادئ علم الأسلوب العربي، شكر محمد عباد، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- ٢٥- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، تح: هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٦٠م.
- ٢٦- المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، د. عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.